قراءة تحليلية نقدية في ديوان نازك الملائكة

د. جبران بن سلمان سحّاري

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية مؤسس مدرسة الميزان للنقد الأدبي في الرياض

تُعد الشاعرة العراقية نازك الملائكة من رائدات الشعر الحديث في الوطن العربي، ويعجب بها الكثير من شعراء الحداثة لكونها أول من كتب الشعر التفعيلي الحر المتمرد على الوزن والقافية، وقد كتبت في قضايا الشعر المعاصر وغير ذلك وربما يتضح خلاف ما يشتهر عند كثيرين بمزيدٍ من البحث والاطلاع والمناقشة.

هي الشاعرة العراقية عاشقة الليل نازك بنت صادق جعفر الملائكة ولدت في بغداد عام 1354هـ الموافق 1923م ونشأت في بيت علم وأدب، وأمها هي الشاعرة سلمى عبدالرزاق وكنيتها (أم نزار) ووالدها هو الشاعر العراقي (صادق جعفر الملائكة) الذي جمع قول الشعر والاهتمام بالنحو واللغة كعادة الشعراء آنذاك.

أحبت نازك الشعر منذ الصغر وولعت به وهي ما زالت طفلة، ووجدت في مكتبة أبيها الزاخرة بدواوين الشعر وأمهات كتب الأدب ما يروي ظمأها إلى الاطلاع والمعرفة.

أكملت دراستها في بغداد، ثم التحقت بالجامعة، وحصلت على منحة دراسية إلى (الولايات المتحدة) حيث حازت على درجة الماجستير في الآداب، وكانت أول تلميذة تحظى بالدراسة هناك.

عادت إلى بغداد وأتيحت لها فرصة أخرى للسفر خارج العراق؛ للحصول على درجة الدكتوراه في الأدب المقارن، عملت سنين طويلة في التدريس في جامعة بغداد، وجامعة البصرة ثم جامعة الكويت، ثم اتجهت للعزلة الخاصة والإقامة في القاهرة إلى أن توفيت بها عام 1428هـ ـ 2007م بسبب هبوط حاد في الدورة الدموية وشيع جثمانها هناك رحمها الله رحمة واسعة.

لها ست مجموعات شعرية هي: (مأساة الحياة) و(عاشقة الليل) و(شظايا ورماد) و(قرارة الموجة) و(شجرة القمر) و(للصلاة والثورة) وكلها قد جمعت في (الأعمال الشعرية الكاملة) الصادرة عن دار العودة ببيروت عام 1429هـ ـ 2008م. وذلك بعد وفاتها بعام، وتعد طبعة ثانية فقد كانت صدرت الطبعة الأولى في التسعينيات الهجرية ثم نفدت فأعيدت طباعتها في ذكرى رحيلها.

اشتهرت بأنها أول كاتبة لقصيدة التفعيلة من الشعر الحر وهي (الكوليرا) حيث تتحدث عن مرض منتشر في العراق آنذاك يتعلق بجرثومة معوية رأى بعضهم انتقالها

من شخص آخر، ومطلع هذه القصيدة:

سكنَ الليلُ أصغِ إلى وقع صدى الأنات

في عمّق الظلمة تحت الصمت على الأموات ..

وتكون بذلك قد سبقت الشاعر العراقي المعاصر لها بدر شاكر السياب الذي كانت له محاولات في السبعينيات الهجرية وإن كان توفي مبكرًا قبلها بنحو ثلاث وأربعين سنة حيث توفي عام 1384هـ.

وهذه القصيدة مضمنة ديوانها (شظايا ورماد) انظر: الأعمال الكاملة: 2/ 99.

وقد أكدت ذلك بنفسها في قضايا الشعر المعاصر ص 14 حيث قالت: "عام 1962م صدر كتابي هذا، وفيه حكمت أن الشعر الحر قد طلع من العراق ومنه زحف إلى أقطار الوطن العربي، ولم أكن يوم أقررت هذا الحكم أدري أن هناك شعرًا حرًّا قد نظم في العالم العربي قبل سنة 1947م سنة نظمي لقصيدة "الكوليرا"؛ ثم فوجئت بعد ذلك بأن هناك قصائد حرة معدودة قد ظهرت في المجلات الأدبية والكتب...".

ومهما يكن من أمر فقد يكون تزامنًا من هؤلاء الشعراء ولا يخفى ما قد يعتري الأمر من تأثرٍ بالآداب الغربية والمدارس المختلفة آنذاك.

وقد أعلنت نازك الملائكة رجوعها عن هذا اللون وقصرت ما كان تفعيليًّا منه على ما انتظم تفعيلة واحدة متسقة واشترطت كتابة القصائد العروضية المعروفة، وعُرف هذا الأمر باسم (توبة نازك الملائكة) تلك التوبة المشهورة هكذا أفادني الشاعر والأديب الدكتور/ عدنان بن علي رضا النحوي رحمه الله (ت: 1436هـ) وقال: رجعت عما قررته من شعر التجديد والحداثة.

وكتب الأستاذ محمد مصباح مظلوم المعروف بشاعر العالم مقالاً بعنوان (نازك الملائكة شاعرة التوبة عن خطيئة التجديد).

وقد صرحت بذلك في مقدمة ديوانها (شجرة القمر) فقال حول الشعر الحر: "ولا أذكر أنني اقتصرتُ على الشعر الحر في أية فترة من حياتي، وسبب هذا أنني أولاً أحب الشعر العربي ولا أطيق أن يبتعد عصرنا عن أوزانه العذبة الجميلة ثم إن الشعر الحر ـ كما بينتُ في كتابي ـ قضايا الشعر المعاصر ـ يملك عيوبًا واضحة أبرزها الرتابة والتدفق والمدى المحدود، وقد ظهرت هذه العيوب في أغلب شعر شعراء هذا اللون، وهذا حاصلٌ أيضًا في الشطرين فإن له مزايا وله عيوبًا، وإني لعلى يقين أن تيار الشعر الحر سيتوقف في يوم غير بعيد وسيرجع الشعراء إلى الأوزان الشطرية بعد أن خاضوا في الخروج عليها والاستهانة بها..." إلى آخر كلامها.

ومن قصائدها التفعيلية الأخرى: (نهاية السلّم) في الأعمال الكاملة: 2/79 وأولها: "مرت أيام منطفئات".

وقصيدة (أنا) 2/ 82 ومطلعها:

الليل يسأل من أنا؟

أنا سره القلقُ العميق الأسودُ ...

وقصيدة (الهجرة إلى الله) 2/441 ومطلعها:

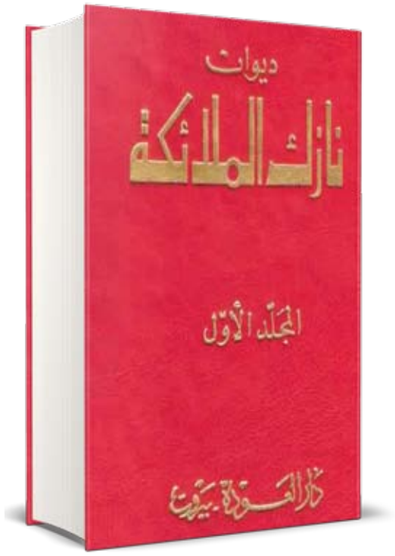

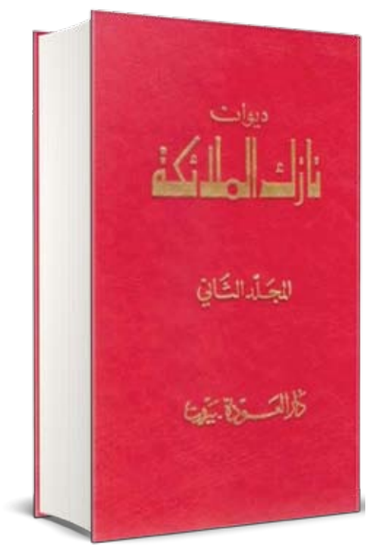

عرفتك في ذهول تهجدي وقرنفلي أكداس

عرفتك في اخضرار الآس...

وغيرها من القصائد السائرة على هذا النمط.

والآن سأجري دراسة تحليلية نقدية لبعض قصائدها المشهورة والله الموفق.

أولاً: قصيدة مأساة الحياة (الأعمال الكاملة:1/ 21 ـ 39):

تقول في مطلعها:

عبثًا تحلمين شاعرتي ما من صباح لليل هذا الوجود

عبثًا تسألين لن يُكشف السرُّ ولن تنعمي بفكّ القيود

فمطلع هذه المأساة ينضح بشيءٍ من التشاؤم والحماس في ثورة تمردية انتشرت واشتهرت عند الثائرين على الانضباط الذين يبتكرون المعاني العبثية (عبثًا تحلمين).. (عبثًا تسألين) وليس في هذه الألفاظ ما يدعو للاستحسان في الغالب.

ثم تقول أيضًا:

كيف تذوي القلوب وهي ضياءٌ

ويعيش الظلامُ وهو ظلامُ؟

وفي هذا البيت الطباق بين ضياء وظلام، ولا يخفى ما في وصف القلوب بالضياء من الحسن!

كيف تحيا الأشواك والزهَرُ الفا

تنُ يذوي في قبضة الإعصار؟!

وهنا مطابقة بين الأشواك والزهر.

وفي وصف الزهر بالفاتن كناية عن شدة جماله.

ثم تشير إلى مأساة الحياة بقولها:

حدّثي القلبَ أنت أيتها المأ

ساةُ يا من قد سُمّيتِ بالحياة

فهي تخاطب المأساة كأنها فتاة تسمعها وتقول: إنك سُميتِ بالحياة وهذا عن طريق الإضافة (مأساة الحياة) وهذا هو عنوان المجموعة الشعرية.

وتقول:

أبدًا أسأل الليالي عن المو

تِ وماذا تُرى يكون المصيرُ.

فتستمر في سؤال الليالي وتجعل منها مستمعًا يعقل ويعي الخطاب والسؤال.

كما تخاطب الحياة بقولها:

امنحيني عُمْرَ الزهور فلن أبـ

ـكيَ ومدّي الأيامَ لي إن رغبتِ

وترسل المثل في قولها:

ما الذي ينفع البكاءُ وما يُصـ

ـغي إلى الصارخين قلبُ الفضاءِ

كذلك تصف نفسها بأنها حيرة وذهول من وقع السيطرة فتقول:

ها أنا الآن حيرةٌ وذهولٌ

بين ماضٍ ذوى وعمر يمرُّ

كما تخاطب ضفاف الأفراح وكأنها تريد الاقتراب من الفرح فتقول:

يا ضِفاف الأفراح يا ليتني أعـ

ـرفُ شيئًا عن أُفقك المجهولِ

وتعبر في مقطوعة (على تل الرمال) عن بناء حياتها بالأحلام مع النسيان فتقول:

كلَّ يوم أبني حياتيَ أحلا ماً وأنسى إذا أتاني المساءُ

ثم تجعل الأحلام مدينة تتلاشى في نشوة الأوهام فتقول:

إيه تلَّ الرمالِ ماذا ترى أبـ
ـقيت لي من مدينة الأحلام؟
أُنظر الآن هل ترى في حياتي
ـلمحةً غيرَ نشوة الأوهام؟

وتواصل مرحلة التشاؤم والبعد عن الزمن الجميل فتقول:

لم أعد في الشتاء أرنو الى الأمـ
ـطار من مهديَ الجميلِ الصغيرِ
لم أعد أعشق الحمامة إن غنّـ
ـت وألهو على ضفاف الغديرِ

وتخاطب التل أن يعيد فردوسها المفقود والزمن الجميل الذي عاشته فتقول:

آه يا تلُّ ها أنا مثلما كنـ
ـتُ فأرجعْ فردوسي المفقودا

وتستمر في وصف تلك الصور الجميلة فتقول:

كان شدو الطيور رجْعَ أناشيـ
ـدي وكان النعيم يتبع ظلّي
هل أنا الآن غيرُ شاعرة حيـ
ـرى وهل غير هيكلي المضمحلّ؟

وهذه من صور التشاؤم أيضًا في مأساة الحياة.

وتستمر في تخيل الوهم وتعكيره صفوها فتقول:

كلما شِمْتُ زهرةً صوّر الوهـ
ـمُ لعينيَّ قاطفَ الأزهـارِ

وتقول:

أين منّي مفاتن القمر السا
حر والصيف والظلام المثير؟

وفي وصف الظلام بالمثير تأكيدٌ لنظرتها التشاؤمية.

وتقول:

تتقاضى الأحياءُ قيمة عيش
ضمَّهم من شقاهُ أعمقُ تيهِ

وفي مقطوعة (آدم وحواء) تقول:

حسبها أننا دفعنا إليها ثمنَ العيش حيرة ودموعا
أيُّ ذنبٍ جناه آدمُ حتى نتلقى العقاب نحن جميعا؟

والضمير في (حسبها) يعود على حواء، وتؤكد أننا جميعًا دفعنا الثمن وتلقينا العقاب وأن الخطيئة يستمر عقابها!

وفي مقطوعة (قابيل وهابيل) تقول:

ليس إلا قابيلُ يمشي رهيب الـ
ـخطو نهبَ الأفكار والأوجاعِ

وفي التعبير بـ (نهب الأفكار) كناية عن الشتات والحيرة والقلق أيضًا.

وتختم المقطوعة بقولها:

كلما ذاق قطرةً من نعيم
أعقبَتْها من الأسى ألفُ قطرهْ

وبين النعيم والأسى طباق.

كما تُعرّج على الحرب العالمية الثانية فتقول:

لم يكد يستفيق من حرْبه الأُو
لى ويهنا حتى رمته الرزايا
رحمةً يا حياةُ حسبُك ما سا
ل على الأرض من دماء الضحايا

والضمير في (يستفيق) يعود على الإنسان، والرزايا هي المصائب، وتخاطب الحياة بطلب الرحمة نظرًا لكثرة سيلان الدماء، وكان خطاب الله ومناجاته أولى بل هو المتعين وتأثيره أعظم.

ثانيًا: قصيدة كبرياء (الأعمال الكاملة:2/ 23 ـ26):

تفتتح القصيدة بمنع السؤال عن الدموع الحرّى وهذا الوصف كناية عن حرقة تقول:

لا تسلني عن سر أدمعي الحرّ
ى فبعض الأسرار يأبى الوضوحا
بعضها يؤثر الحياة وراء الـ
ـحسّ لُغزا وإن يكن مجروحا
بعضها إن كشفته يستحل حبـ
ـاً مُهانًا يموت موتًا حزينا

فوصفت الحب بأنه مهانٌ ومصيره الموت الحزين.

ولا تبرح التشاؤم كذكر أشباح اليأس والحيرة والانكسار في قولها:

وعيونٌ وراء أهدابها أشـ باحُ يأس في حيرة وانكسارِ

وتتحدث عن القلوب الكبيرة التي تؤثر الموت كبرياءً فتقول:

تؤثر الموتَ كبرياءً ولا تنـ ـطقُ بالسر بالرجاء الخجولِ

كما تتحدث عن الأكف المزيفة تقول:

وأكفٌّ تودُّ لو مزّقتْ لـو قتّلتْ لو تمردتْ في جنونِ
لو رأتها الحياةُ قالت: هدوءٌ وادعٌ في براءة وسكونِ

فتظهر للحياة في (هدوء وادع) والواقع بخلاف ذلك.

كما تواصل وصف الكبرياء في ألفاظ تنم عن الحزن (لا تجرح السر) (كبرياء سكوتي) (قبر حلم) (جرح مميت) (ترتعش الأشعار حزناً) (سكوتي العميق) (قلبي يتحطم) فتقول:

لا تسلني لا تجرح السر في نفـ
ـسي ولا تمحُ كبرياء سكوتي
لو تكلمتُ كان في كلّ لفظ
قبرُ حُلْمٍ وفجرُ جُرح مميتِ
لو تكلمتُ كيف ترتعشُ الأشْـ
ـعار حزناً وترتمي في عَيَاءِ

✺✺✺

وسكوتي العميق يكتم أنفاسي وقلبي يكاد أن يتحطم

وتقول في وصف حالتها:

تتلاقى عليهما كل أسـرا
ري فأبقى شعرًا وحبًّا ونارا

وتختم بوصف حياة الكبرياء فتقول:

وتظل الحياة تخلق من وجـ
ـهي قناعا صلدًا يفيض رياءا
جامدًا باردًا أصمَّ ويُخفي
بعضَ شيءٍ سميتُه كبريـاءَ

ثالثًا: أغنية للحياة ضمن شجرة القمر (الأعمال الكاملة:2/ 306 ـ 309):

تقول في مطلعها:

إذا سألوا في غدٍ عن هوانا ونحن ترابٌ مع الذكريات
راح يجيبهم العابرون بأنا مررنا بهذي الحياةْ
وذقنا الهوى والمُنى والعذابَ كأسلافنا ثم عُدنا رفاتْ
وعفّت على أثرَيْنا الرياحُ وعدنا ضبابًا تلاشى وماتْ

فتطوي قصة الحياة والذكريات ثم تقول:

وقال لهم قائلٌ: إننا شربنا الأسى في ثنايا الكؤوسْ
وإن ابتساماتنا كنّ لوناً يغلّف شيئًا طوته النفوسْ
وإنا دفعنا أناشيدنا وأحلامنا للرجاء العبوسْ
وكنا كمن قبلنا غرباءَ على الأرض ثم طوتنا الرّموسْ

وقافية السين هنا تشعر بالحزن والخوف الذي يشير إليه الصفير المستوحى من حرف السين.

ثم تواصل قائلة:

فمن سوف يخبرهم أننا شربنا العذوبة حتى سكرنا
وأنا ملكنا ضياء النجوم ودجلة والفجر فيما ملكنا
وكانت لنا من خدود النسيم وسائدُ تسندنا إن كللنا
وأنا تركنا حكاياتنا وأخبارنا للرياح ونمنا

✺✺✺

وأنا عرفنا الحياة ارتعاشًا ونبضًا وأغنيةً خالدهْ
عرفنا الغرام الرقيق الجبين وذقنا لياليَهُ الساهدهْ
وكم مرة قد ضممنا السّعادَ ة في هذه الأذرع الهامدهْ
وذقنا حنين الجمال اللذيذ وملحَ مدامعنا الباردهْ

✺✺✺

وكانت لنا قطرات الندى ومنزلقُ الضوء كل صباحْ
وكان النسيم شفاهًا تمرّ تقبّل ما جرحته الرياحْ
وكنا نحب الشذى والنخيلَ وآفاقنا والسهولَ الفساحْ
وإن جرحَتْنا أكفّ الحياة سكبنا الرضى في شفاه الجِراحْ

✺✺✺

ثم تنطلق في محول الوجود على قافية الراء الساكنة ذات المدلول الكبير على الأثر فتقول:

وكان الوجودُ سخيَّ اليدين فأعطى هوانا ضياء القمرْ
ولف خيالاتنا بالعبير ومدَّ علينا ظلال الشجرْ
وروَّى صَدانا بخمر الكروم وطهَّر أفكارنا بالمطرْ
وتوَّجنا بغصون البنفسَـ ـج والزنبقِ المخمليّ العَطِرْ

✺✺✺

ثم تختم القصيدة بالهمزة الساكنة فتقول:

وكنا له بأناشيدنا وأشواقنا المُرحات الوضاءْ
ومن أجله قد هوينا الحياة ومن أجله قد عشقنا الفناءْ
وها نحن بين ذراعيْ ثَرَاهُ نشيدين لا يعرفان انتهاءْ
يعشّشُ في تربتَيْنا الجمالُ فيا جهلَ مَنْ ظنّنا أشقياءْ

وهكذا نكون قد خرجنا من هذه القراءة بتحليل لبعض جماليات شعرها، كما عرجنا على بعض المواضع النقدية في شعرها من ضعف التعبير تارة أو إخفاء وجه الفأل مع الإغراق في التشاؤم، مع أنها عاشقة الليل كما سمتْ نفسها بذلك، وأطلقت هذا الاسم على أول مجموعاتها الشعرية (عاشقة الليل) ونكتفي بهذا القدر، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

الحفيدة

سها شريّف
سوريا

حان موعد ظهور نتائج الثانوية العامّة على شاشات الإنترنيت. جمعت والدتي العائلة وحذّرتها من إطلاق زغاريد الفرح في حال نجاحي حرصًا على وضع جدّتنا المريضة.

دخلتُ إلى غرفة جدّتي وأخفيت عنها نبأ صدور النتائج. ناولتها الدواء. فاضت عيناها محبة واحتضنتني أمواج قلبها. وإذا بالدموع يقذفها بركان ألمها الدفين فتسيل حممًا كاوية على تجاعيد وجهها الحزين. وبإشارات متكررة فهمت أنها قلقة على نتيجتي. يبدو أن حديثنا عن موعد صدور النتائج قد تسرّب إلى سمعها خلسة. يخفف ثوران النفس القلقة. بّدد الهواء زفرات خرجت من أعماق نفسي المصدوعة قلقًا. تسرّبت قطرات من العرق على جبيني وجفّ فمي. بردت أطرافي وتشتّت نظري وانقبض صدري ودبَّ الرعب بقلبي ..

قلت لنفسي: "ماذا لو لم أنجح !! ماذا أقول لروحها المعذبة والقلقلة داخل جسدها الواهن والعاجز بعد إعلانه العصيان على الحياة؟"

وهمّت دموعي أن تعلن كارثة من الفيضان فخرجتُ من الغرفة مسرعة كي لا تراني جدتي. دخلت إلى الغرفة المجاورة. كان الجميع يتحلّق حول شاشة الحاسوب. لم أعد أتمالك القدرة على الوقوف. جلستُ قرب كرسيّ ووضعتُ يدي على أذنيَّ.

عدُتُ إلى الواقع على صوت جدتي وهي تتأوه وتزفر بحرقة وتقول بداخلها: "كان أملي بالفرح يتبعثر كلما ركنت الكتاب جانبًا. أنا لم أعد أفيدك شيئًا. وأصبحتُ جثّة هامدة تنتظر موتها. أما أنت فالمستقبل أمامك وهو سعادتي".

اقتربتُ منها ومسحتُ على رأسها وحاولت أن أطمئن نفسها القلقة فقلت لها: "لا تخافي بفضل دعائك لن ينساني الله من رحمته".

دفعني الأمل المتنهد بين ضلوعي إلى النهوض نحو النافذة. نظرت إلى السماء كمن تبحث عن نور أمل يخفف ثوران النفس القلقة. بّدد الهواء زفرات خرجت من أعماق نفسي المصدوعة قلقًا. تسرّبت قطرات من العرق على جبيني وجفّ فمي. بردت أطرافي وتشتّت نظري وانقبض صدري ودبَّ الرعب بقلبي ..

فجأة علا صوت والدتي وهي تصفّق من دون أن تتمالك نفسها:

- "لقد نجحتِ يا أمل بمجموع كبير"

أصابني الجمود كأنني أحاول التأكّد باستمرار سريان الحياة في قلبي. ثم قفز قلبي فرحًا واحتضنتُ والدتي وإذا بزغرودة تجاهد للانطلاق من سجن آلامها إلى ميدان الفرح في غرفتنا. وقف الجميع مذهولين! من هذا المتسرّب الذي خالف تعليمات والدتي؟ أسرعنا جميعًا إلى مصدر الزغرودة وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما كانت جدّتي تحاول جاهدة أن تضع يدها على فمها وتطلق الزغاريد بدموع تنهمر من عصارة قلبها المعلّق بي بعد أن فجّر الفرح صمتها الراقد في صحراء ألمها.